على العهد

عمير بن سعد

رضي الله عنه

كن صادقا مع نفسك، على عهدك مع ربك

« لئن كان الرجل صادقا، لنحن أشر من الحمر !».

هتف بها « جلاس بن سويد بن الصامت » في سخرية، وهو يتحدث في مجلس به بعض أصدقائه كان من بينهم قريبه «عمير بن سعد»، الذي انزعج بشدة مما سمع ونهض وهو يقول في غضب:

- ماذا تقول يا جلاس ؟ أحقا ما سمعت ؟!

قال جلاس في صفاقة:

- أقول ما سمعت يا عمير، وهذا ما أرى.

لم يتحمل عمير ما قاله جلاس..

فلقد كان الرجل الذي يقصده بالحديث رجل يحبه ويحترمه، وفضله الله على خلقه جميعا.

جعل محبته فريضة وإيذاءه جريمة..

رجل أنعم على عمير بنعمة ترسم له طريقه إلى الجنة.

لقد كان جلاس يقصد الرسول ﷺ.

إلا أن ما زاد من غضب عمير وحنقه هوأن من قال هذا الكلام عن رسول الله ﷺ، ليس بمشرك أوأحد زعماء قريش الذين يجتهدون في القضاء عليه بشتى الطرق..

إنما كان مسلما..

نعم كان مسلما..

إلا أنه كان قد دخل الإسلام من باب الخوف لا من باب الاقتناع...

إلا أن علاقة عمير بجلاس أوقعته في صراع نفسي رهيب ..

فعمير يحب «جلاسا»، فهو صديقه وقريبه، توطدت علاقتهما منذ زمن وتوثقت، وجمعا معا من ذكريات الحياة الكثير.

ورسول الله ﷺ هوأحب الناس إليه، ولا يكون هذا الحب إلا بالولاء والدفاع عنه في وجوده وغيبته.

وهنا قال عمير لجلاس في رفق أملا أن يصيبه بعض الخجل:

« والله يا جلاس إنك لمن أحب الناس إلي، وأحسنهم عندي يدا، وأعزهم على أن يصيبه شيء يكرهه.. ولقد قلت الآن مقالة لوأذعتها عنك لآذتك، ولو صمت عليها ليهلكني ديني، وإن حق الدين أولى بالوفاء وإني مبلغ رسول الله ﷺ ما قلت » .

كلام رقيق واضح صريح من عمير لصديقه جلاس يوضح فيه موقفه منه كصديق، وما فعله

من ارتكاب خطأ في حق رسول الله ﷺ الذي آمن به، وواجبه في أن يدافع عن الرسول ﷺ ويبلغه بما حدث.

كانت الكلمات رقيقة مقنعة مليئة بالحب والحكمة..

وكان من الممكن أن ينتهي الأمر كله بتوبة واستغفار ثم اعتذار.

إلا أن قلب جلاس كان أقسى من أن يعى أو يرق، ونفسه كانت أبعد من أن تخجل من خطأ وتعتذر عنه، حتى لو كان هذا الخطأ في حق رسول الله ﷺ.

وأخذت جلاس العزة بالإثم ورفض أن يظهر حتى بادرة ندم.

وهنا انفعل عمير قائلا في ثورة:

- لأبلغن رسول الله ﷺ قبل أن ينزل وحي يشركني في إثمك.

كانت القضية عند عمير أخطر مما تخيلها جلاس بكثير..

فلقد كان يخشى أن يشهد القرآن عليه إلى يوم الدين بأنه شارك بصمته في إثم في حق الرسول ﷺ.

ولا يمكن أن تكون الصداقة أغلى من غضب الله ورسوله ﷺ.

وعلى الفور ذهب إلى رسول الله ﷺ ليخبره، ليأمر الرسول ﷺ باستدعاء جلاس الذي ما لبث أن أنكر في جبن ونفاق، دفعاه إلى أن يحلف بالله كذبا.

لكن الله لم يشأ أن يظن الناس في عمير الصادق المخلص سوءا..

فأنزل قرآنه العظيم يكشف الحقيقة ويدين الكذاب:

﴿ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُواْ وَلَقَدْ قَالُواْ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُواْ بَعْدَ إِسْلَـٰمِهِمْ وَهَمُّواْ بِمَا لَمْ يَنَالُواْ ۚ وَمَا نَقَمُوٓاْ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ ۚ فَإِن يَتُوبُواْ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ ۖ وَإِن يَتَوَلَّوْاْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ وَمَا لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٧٤﴾ ﴾ [التوبة].

وفوجئ جلاس بما لم يكن يتصوره، لقد كشف الله الحقيقة، فعلى من سيكذب هذه المرة ؟

واضطر جلاس أن يعترف بما قال، وأن يعتذر وأن يتوب بعد أن فتح الله باب التوبة له.

وكانت هذه نقطة تحول خطيرة في حياة جلاس وإسلامه.

بفضل صدق عمير وشجاعته..

وأمسك النبي ﷺ بأذن عمير في رفق قائلا له وهو يبتسم:

« يا غلام.. وفت أذنك [١] وصدقك ربك » .

---

(١) **وفت أذنك**: ظهر صدقك في إخبارك عما سمعت

واستمر عمير على صدقه على مر السنوات، وكان زهده وورعه لا يجعلانه يدري أن هناك عينا بصيرة تراقبه حتى يأتي يوم.. يحتاج إليه صاحبها بشدة.

ولم يكن صاحب تلك العين البصيرة إلا الخليفة الثاني..

عمر بن الخطاب.

* * *

كان عصر عمر بن الخطاب هو عصر الفتوحات وبناء الدولة الإسلامية واستقرارها.

وكان عمر رجل إدارة من الطراز الأول..

ورجل الإدارة الخبير هوالذي يعرف أين يضع الرجل المناسب في المكان المناسب.

ولذا.. ظل عمر بن الخطاب يخزن في ذاكرته تصرفات الرجال، ثم يستدعي منها من شاء ليضعه في مكانه المناسب.

وكان عمير بن سعد رجلا شجاعا صادقا في إيمانه، زاهدا متعبدا، مخلصا لا يحب الأضواء والشهرة، ولا يتقدم في الصفوف الأولى إلا إذا كان لصلاة أو في ميدان جهاد.

وهذه النوعية بالتحديد.. هي ما كان يريده عمر لإمارة المدن الإسلامية.

لقد وجد عمر في عمير كل ما وضعه من قواعد لاختيار حاكم لولاية إسلامية.

«أريد رجلا إذا كان في القوم وليس أميرا عليهم، بدا وكأنه أميرهم..وإذا كان فيهم وهو عليهم أمير بدا وكأنه واحد منهم..

أريد واليا، لا يميز نفسه على الناس في ملبس ولا في مطعم ولا في مسكن..

يقيم فيهم الصلاة، ويقسم بينهم الحق، ويحكم فيهم بالعدل، ولا يغلق بابه دون حوائجهم ».

شروط قاسية ومعايير صارمة نقرؤها اليوم لنعدها دربا من الخيال أن تتوافر في حاكم .

ولقد اجتاز عمير كل هذه الشروط، ليختاره عمر واليا على حمص في الشام.

وكما كان عمر يتوقع مع تلك النوعية..

رفض مبدئى ثم إصرار على الرفض ثم محاولات مستميتة من عمر لقبول الولاية، يتخللها غضب منه واتهام لصحابته بأنهم يتركونه يغرق في المسئولية دون مساعدة.

وينتهي نفس السيناريوالذي يعرفه عمر جيدا بقبول عمير بن سعد الولاية مكرها..

ثم لا يلبث أن يستعد لمهمة شاقة.

ويسافر عمير من المدينة إلى حمص ليبدأ مهمته..وقد بدأها بتعريف الناس بنفسه وبالإسلام ورسالته العظيمة..

فوقف على المنبر يقول وسط حشود المسلمين:

« أيها المسلمون..

إن الإسلام حائط منيع، وباب وثيق..فحائط الإسلام العدل، وبابه الحق، فإذا نقض الحائط وحطم الباب، استفتح الإسلام [1]..

ولا يزال الإسلام منيعا ما اشتد السلطان..

وليست شدة السلطان قتلا بالسيف ولا ضربا بالسوط، ولكن قضاء بالحق وأخذا بالعدل ».

تلك كانت رؤية عمير في الحكم والسلطة.

السلطة تقوى بالعدل وثقة الشعب في الحاكم والتفاهم بينهما، وتضعف بالقوة الظالمة الباطشة التى تجعل الناس يتحينون الفرصة للشماتة في حاكم يمشي بينهم بالكرباج ليرفع الظلم درجات وينزل العدل درجات.

لكن عميرا ظل في حمص عاما كاملا دون أن تصل أخباره إلى عمر..

فهو لم يبعث حتى برسالة، ولم يرسل إليه شيئا من خراجها.

وكان طبيعيا أن يرسل عمر إلى عمير رسالة تطالبه فيها بالرجوع إلى المدينة لبحث ما حدث خلال عام كامل في حمص.

وبمجرد أن تصل الرسالة إلى عمير، يحزم أمتعته ويتجه إلى المدينة ماشيا..

نعم ماشيا..

بعد عام كامل من الحكم في حمص، يقطع عمير كل هذه المسافة ماشيا في ملابس بسيطة متواضعة، يحمل على كتفه اليمنى جراب وقصعة وعلى كتفه اليسرى قربة صغيرة فيها ماء، وفي يده عصا يستند إليها في مشيته.

وأخيرا يصل عمير إلى المدينة..

وبعدها بقليل يكون قد دخل إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب.

وبمجرد أن رآه عمر حتى أشفق عليه مما بدا عليه من إجهاد شديد، فقال له وهو يمد ذارعه إليه ليعينه على الجلوس:

- ما شأنك يا عمير ؟

قال عمير في هدوء وهو يلتقط أنفاسه:

- شأني كما ترى، ألست تراني صحيح البدن، طاهر الدم، معي الدنيا أجرها بقرنيها؟!

وينظر عمر إلى أمتعته متسائلا:

---

(١) **استفتح الإسلام:** طلب نصره.

- وما معك ؟

قال عمير وهو يشير إلى أمتعته واحدة تلو الأخرى:

معي جرابي أحمل فيه زادي، وقصعتي آكل فيها، وإداوتي [1] أحمل فيها وضوئي وشرابي، وعصاي أتوكأ عليها، وأجاهد بها عدوا إن عرض..

ثم رفع بصره إلى عمر وهو يقول في اطمئنان وثقة:

فوالله ما الدنيا إلا تبع لمتاعي !

سأله عمر في دهشة:

- أجئت ماشيا ؟!

قال عمير دون أن يبدي أي مؤشر لفعله الخارق :

- نعم.

تضاعفت ملامح الدهشة عند عمر وهو يقول:

- أولم تجد من يعطيك دابة تركبها ؟!

أجاب عمير وقد رأى أن الحديث في هذا الأمر قد طال:

- إنهم لم يفعلوا.. وأنا لم أسألهم.

أيقن عمر أن ما به من عجب لن ينتقل شيء من رذاذه إلى عمير، ففضل التحول إلى الموضوع الرئيسي الذي استدعاه من أجله قائلا:

- ماذا فعلت فيما عهدنا إليك ؟

هنا بدأت تشتد ملامح وجه عمير وتتسع حدقتا عينيه ليقول في انتباه من يقدم تقريرا لرئيسه:

- أتيت البلد الذي بعثتنى إليه، فجمعت صلحاء أهله، ووليتهم جباية فيئهم وأموالهم، حتى إذا جمعوها وضعتها في مواضعها، ولو بقي منها شيء لأتيتك بها.

عادت الدهشة إلى عمر رغما عنه وهو يتساءل قائلا:

- أما جئتنا بشيء ؟!

أجاب عمير بلهجة من يثق في أمانة تصرفه قائلا:

- لا.

وخرج عمر من الحوار ليعلم أنه قد أحسن الاختيار..ككل مرة يحسن فيها الاختيار.

ويطلب من عمير أن يعود إلى حمص ليكمل مهمته.

---

(١) إداوة: الإناء الذي يحمل فيه الماء.

إلا أن أمثال عمير يجهدون من الولاية إجهادا غير عادي..

إنه من الرجال الذين يشقون على أنفسهم في الحساب، حتى إنه يخشى أن يكون قد استعمل الهواء الذي يتنفس به أكثر مما ينبغي.

واعتذر عمير بن سعد لعمر..

ولكن هذه المرة لم يفلح عمر بن الخطاب أن يضغط عليه.

فلقد تحمل عمير من الضغط في حكمه ما يكفيه .

فقال لعمر بلهجة من يقول كلاما نهائيا:

- تلك أيام قد خلت، لا عملت لك، ولا لأحد من بعدك.

كنت أتمنى أن تعيش يا عمير إلى اليوم، لتحكي لأناس عبدوا الحكم من دون الله، وأضاعوا في سبيله كل شيء. .

الأخلاق والعفة والكرامة والناس والدين..

وأنفسهم..

سلام عليك يا عمير..

إلى أن نلقاك - إن شاء الله - في حياة.. ليس فيها إلا السعادة والحرية..

* * *

دروس وتحليل

١- عندما يختلف الصديقان لابد من الشجاعة في اتباع الحق (عمير بن سعد يقرر إبلاغ ما سمعه من صديقه جلاس للرسول ﷺ حتى لا يحاسبه الله على ما تجاهله ما سمع من إساءة للرسول ﷺ).

الصداقة شيء جميل لا شك، وجمالها أنها تقوم على حب وتوافق بين الصديق وصديقه، فيكون ذلك دافعا للتعاون بينهما، ومن الصعب أن ينتقد الصديق صديقه أو يتخذ موقفا مضادا له في مسألة ما، وهنا تكمن الخطورة.

أن يطغى حب الصديق على حب الله، وأن تنصر صديقك حتى وأنت تعلم أنه مخطئ، ثم تقف معه في صف واحد ضد الحق.

هذه هى الخطورة، أن ينساق الصديق وراء صديقه في سلوك يعلم تماما أنه سلوك خاطئ أو محرم، فيخجل من صديقه ولا يخجل من الله، ويخشى غضب صديقه ولا يخشى غضب الله.

إننا نريد أن يعلو حب الله على حب كل شيء، هكذا تستقيم الأمور، وتصبح الصداقة في معية الله ورعايته.

٢- لا مانع من أن نبدى وجهة نظرنا في الأمور بأدب ولطف، يحفظ ماء وجه الطرف الآخر (عمير يوضح وجهة نظره لجلاس بلطف) .

بعض من المتدينين يظن أنه ينبغي أن يوقف خطأ الآخرين إذا ما ارتكبوا خطأ أو فعلا محرما، برفع الصوت والتهجم، ويعتبرون ذلك دفاعا عن الإسلام بإخلاص وحمية، وما سيحدث هوأن الطرف الآخر سيزداد عنادا لهذا الأسلوب، وسيكره المتدينين الذي يتحينون الفرص للتهجم على الناس بهذا الأسلوب.

إن الإسلام يدعوالى إظهار الخطأ بأساليب عديدة أولها اللين واللطف والأدب بصورة تحافظ على شعور المخطئ وتحفظ ماء وجهه أمام نفسه وأمام الآخرين، ولذلك كره النصيحة في الملأ أمام الناس، وكره التناجي بين اثنين دون الثالث..

وربما لا تفلح وسيلة الأدب والذوق واللطف مع بعض الناس، فهنا من الممكن أن نتخذ وسائل أخرى لتصحيح الخطأ، ولكنها لا تظل القاعدة أبدا في تصحيح أخطاء الآخرين ودعوتهم.

إن الإسلام دين ذوق وأدب ولطف، وهذا لا يتعارض مع كونه دين قوة وعزة، ولكن علينا أن نضع كل تصرف في مكانه الصحيح.

٣- أسلوب عمر بن الخطاب في اختيار الحكام والمسؤولين، يفسر ببساطة سر قوة الدولة الإسلامية في عهده وضعف الأمة الإسلامية الآن (عمر بن الخطاب يختار عمير بن سعد لإمارة حمص في الشام بعد مراجعة تصرفاته وتحليل شخصيته).

تقريبا مواصفات اختيار عمر بن الخطاب لمسؤوليه، هي عكس مواصفات المسؤولين الآن، فهو يختار الشخص المتواضع، والكثير من المسؤولين الآن في غاية الغطرسة والتكبر، وهو يختار الشخص الذي لا يبحث عن الشهرة والفخر، والكثير من المسؤولين الآن حتى في الأعمال التطوعية، يعتلون المنصب من أجل الظهور في وسائل الإعلام والتخطيط الجيد لعالمهم الجديد بعد الاستقالة أوالإقالة.هو يختار مسؤولا يشعر بشعبه ويحس بآلام أفراده ويعيش بينهم، والكثير من المسؤولين الآن لا يعرفون شيئا عن الناس غير أنهم دائمو الشكوى مهما فعل، وأنهم لا يملون الطلبات، وأنهم لا يشعرون بمقدار الجهد المبذول والتضحية التي يضحيها من أجلهم.

في عهد عمر بن الخطاب: المسؤول يدفعه إلى العمل إخلاصه ويقينه بأنه مسؤول أمام الله قبل أن يكون مسؤولا أمام رئيسه في العمل، ويعمل جاهدا من أجل الناس لا من أجل نفسه، وهو يحاسب نفسه قبل أن يحاسبه الناس والرئيس ورب الرئيس.

والمسؤولين الآن!!!

٤ - الذي يخاف من تطبيق الإسلام يخشاه؛ لأنه دين يقيم العدل فيتجمع حوله الناس، فيقوى الحاكم بشعبه وتصبح الدولة عزيزة مستقلة لا يستطيع أن ينال من كرامتها أحد (عمير بن سعد يعلن للناس أن السلطة في الإسلام تعني العدل).

عدل الإسلام يجعل بعض الفئات تخشاه وتحول دون وصوله للناس ، فهو دين يحارب الفساد والمحسوبية والرشوة ويدعو إلى التواضع والاجتهاد والعمل من أجل الناس لا من أجل المصلحة الشخصية، وهذا يجعل فئات من محترفي الفساد يجتهدون في أن يعطلوا مجيئه ويتحايلون بشتى الطرق لإقناع الشعب بخطورة أصحابه عليهم وعلى استقرار البلاد ومصلحتهم.

واستقرار العدل يجعل الشعب يلتف حول حاكمه؛ لذا من مصلحة الأعداء أن يكون هناك عازل سميك بين الحاكم وشعبه، فيتحصن منهم ويقهرهم، فلا يجمعه مع شعبه هدف أو مشروع حضاري يحقق تقدمهم، إنما يظل الشعب والحاكم يدورون في حلقة مفرغة من الصراع والفشل فلا تقوم للبلاد قائمة أبدا.

لهذا يخافون الإسلام.. ويدعون أن الإسلام لم يأت بالحكم، وأنه يكفينا من الإسلام الصلاة في مسجد يغلق بعدها، وبعض آيات نقرؤها في رمضان، واحتفال بليلة القدر والمولد النبوي.

جرب أن تكون عادلا في موقع مسؤولية، عندها ستجد من يحبك، ومن يكرهك ويريد عدم بقائك.. وسهل عليك أن تعرف السبب.

٥- كلما كان للإنسان قضية كبرى يعيش من أجلها، كلما قلت حاجاته من الدنيا وشعر بأن أقل القليل يكفيه (عمير بن سعد يرى أن زاده القليل يكفيه ولا حاجة له بأكثر منه).

يتعامل الإسلام مع النفس الإنسانية تعاملاعجيبا، فهو يعلم أنها تحب الشهوات والراحة وأن أطماعها لا تقف عند حد معين، فالذي يريد ألف جنية شهريا يريد بعدها ألفين والذي يبنى قصرا يريد قصرين، والإسلام لا يمنع الغنى وتكوين الثروات، ولكن لا يريد للمسلم أن يجعلها الهدف الأول والأخير، فيجهد إجهادا شديدا دون أن يصل إلى هدفه الذي يتغير كلما وصل إليه، فيصبح كالسراب لا يستطيع أن يصل إليه أبدا.

ولذا وجه الإسلام النفس الإنسانية إلى تبنى القضايا المهمة كقضية الدعوة إلى الله ونصرة الإسلام وتحقيق العدل بين الناس إذا كنت في موقع مسؤولية. هذه القضايا ترفع المشاعر وتجعل الإنسان يوجه أحاسيسه ومشاعره إلى معاني راقية يشعر معها بالسعادة لا توازيها سعادة، سعادة مستمدة من رضا الله والناس والرضا عن النفس.

إن هذا ما يفسر سر سعادة الصحابة، رغم كل ما تحملوه من مشقة وأذى في سبيل إعلاء كلمة الله، رغم ضيق ذات اليد للكثير منهم.

إن تبنى الأهداف السامية، يروض النفس على الجهد والمشقة، ويضبط طموحاتها المادية، بحيث لا يبتعد مؤشرها عن منظومة الإسلام وأهدافه ، ويجعلها تتنفس برضا الله، وبالتضحية، والرغبة في إسعاد الغير.

* * *